صفحة دبلوماسية خلال قراءات

الكونت سفورزا وزير لخارجية إيتاليا ، حالى وسابق ، وسفير لها فى باريس يوم استولى موسولينى على الحكم ، فلم يتردد لحظة فى الإبراق باستقالته ، وآثر الإقامة فى باريس ، بعد زيارة قصيرة لروما ، يتردد على أوساطها الدبلوماسية وينشر مقالات دورية فى جريدة « لاديبيش دى تولوز » صحيفة سارو والراديكاليين ، ومبادئهم أقرب ماتكون إلى مبادئه وهو من زعماء الأحرار الإيتاليين . فلما احتل الألمان فرنسا غادرها مع من غادر من زعماء إيتاليا السابقة للفاشية أمثال نيتى إلى الولايات المتحدة . ولما ساهمت إيتاليا فى الحرب إلى جانب ألمانيا أسس جماعة « إيتاليا الحرة » ودفع بها إلى المناداة بالجمهورية الإيتالية . وعندما عقدت الهدنة بين الحلفاء وإيتاليا عاد إلى بلده حاملا لواء الجمهورية فى عنف غير مكتف بنزول الملك فيتوريو أمانويل عن العرش بل ملحا فى إلغاء النظام الملكى جميعاً حتى جاء الاستفتاء محققاً ليوله .

وقد وضع الكونت سفورزا عن السياسة الإيتالية كتاباً سماه « إيتاليا كما رأيتها » ، وعهد إلى دار نشر «برنار جراسيه» فى باريس باخراج طبعته الفرنسية، التى لم تصل بعد — لا هى ولا طبعته الإيتالية — إلى مكتبات القاهرة . لكن مجلة « العالم الفرنسى » قد نشرت منه فصولا فى أحد أعدادها الأخيرة ، وقد تضمنت هذه الفصول صفحة دبلوماسية انطوت على كثير من المعلومات المتصلة بمؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ الذى تحددت فيه مواقف الدول الأوربية من مراكش والذى اعتبره سفورزا — وقد كان سكرتيراً للوفد الإيتالى فيه — مؤذناً بدلائل قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

ويقدم سفورزا لمؤتمر الجزيرة بمفاوضات « التحالف الثلاثى » بين ألمانيا والنمسا و إيتاليا ، التى لم تفز فيها إيتاليا من بسمارك سنة ١٨٨٢ بمساعدة ألمانيا فى سبيل « الاحتفاظ بالتوازن فى البحر المتوسط » ، فاضطرت للبحث عن ضمان

هذا الاحتفاظ فيما بعد لدى انجلترا ولدى فرنسا باتفاقات خاصة بتونس سنة ١٨٩٨ وبليبيا ومراكش سنة ١٩٠٠ . لم تعترض ألمانيا عليها كما لم تعترض من بعد على الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ وإن كانت قد فوجئت به قبل توقيعه بأسبوعين اثنين ؛ إذ قصد سفير ألمانيا بباريس إلى وزير الخارجية الفرنسية دلكاسيه واستأذنه فى أن « يوجه إليه سؤالا فيه جرأة على السر هو هل صحيح أن اتفاقاً على وشك التوقيع بينكم وبين انجلترا ؟ » فأجابه دلكاسيه : « إن فرنسا تريد أن تحتفظ فى مراكش بالحالة السياسية الحاضرة ولكن مع تحسينها . على أن الحرية التجارية ستظل محترمة فيها احتراما تاماً مهما يكن شكل المساعدة التى تلجأ فرنسا إلى تقديمها للسلطان » ، ورأى السفير الألمانى أن هذه التصريحات « طبيعية جداً ومشروعة تماماً » .

لكن الموقف الألمانى قد تغير فجأة بالنسبة لمؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ إذ شاءت أن تضفى على حضورها وحضور إيتاليا إياه صفة التحالف الثلاثى فتتوحد خططهما وتنزل فيه إيتاليا منزلة التابع ليس غير . ولذلك فقد تولى برلين الغضب عندما عرفت بارحة المؤتمر أن وزير الخارجية الإيتالية الجديد قد عرض على المراكيز فيسكونتى فينوستا أن يكون رئيس الوفد الإيتالى إلى مؤتمر الجزيرة بدل سفير إيتاليا بمدريد سلفستريلى الذى كان مشهوراً بميوله لألمانيا والذى كان قد اختاره لتلك الرياسة وزير الخارجية السابق . وقبل المراكيز المهمة على شرطين اثنين : الأول ألا يحمل من التعليمات إلا ما كان « مستمداً من محالفات إيتاليا ومنبعثاً من مصالحها » . والثانى ألا يصحبه إلا سكرتير سياسى واحد ، مع ابنه الذى يقوم له بدور السكرتير الخاص .

وكان الشاب سفورزا هو هذا السكرتير السياسى الأوحد .

وقد مثل فرنسا فى المؤتمر بول ريفوال يقول عنه سفورزا إنه محام راح يترافع فى قضية . ومثل ألمانيا أحد سفرائها القدماء يعاونه تاتنباخ الذى يصفه سفورزا بأنه «ألمانى أكثر منه دبلوماسى» . وكان سر أرثر نيكولسون ممثل بريتانيا العظمى الأول ، ومن الصعب فى نظر سفورزا أن يكون المرء أكثر منه تردداً وأكثر قسوة حسب الأحوال . أما مندوب أميريكا فكان هنرى وايت الذى يراه سفورزا « عشيراً من الطراز الأول وموفقاً بين مختلف الآراء بالتعريف » ، كما يرى سكرتيره « ممتعضا لجهل رئيسه بمسائل البحر المتوسط » . وكان رئيس

المؤتمر هو الوزير الأسبانى دوق المودوفار الذى يقول عنه سفورزا إنه « أكثر عروبة من العثمانيين محمد الطربس الذى كان يتولاه « القرف » إذ يضطر لأن يمضى أيامه الباقية مندوباً أول لمراكش فى ألفة جمع من المشركين » .

ويقرر سفورزا إن الذين حضروا الأسابيع الأولى لمؤتمر الجزائر قد لاحظوا أن مايقال عن دقة النظام الألمانى أسطورة من الأساطير . فقد كان لألمانيا على ماتقدم مندوبان رئيسيان . وكانت تصل إلى كل منهما تعليمات من شعبتين متنافستين فى وزارة الخارجية ببرلين . وكان الفرنسيون أول الأمر يرجعون اختلاف التعبيرات التى يلجأ إليها الممثلان الألمانيان إلى الإغراق منهما فى الخداع ، ولكنهم انتهوا إلى تعرف الحقيقة خلال ما وقفوا عليه من إفضاءات المساعد الألمانى فى بعض البيئات المحايدة ، فكثيراً ما كان يقرر فيها أن ألمانيا لا تريد الحرب حقا ولكنها إذا اضطرت إليها اضطراراً فانها « ستفعص الفرنسيين كالبق » .

وجاء يوماً هذا المساعد تاتنباخ إلى المندوب الإيتالى الأول ووجه إليه اللوم إذ يلتزم موقفاً قريباً من الحياد . وأخذ يلقى عليه درساً فى السياسة الأوربية ، فاستمع إليه المركيز — وهو تلميذ مازينى وصديق كافور — فى صبر طويل ، ثم توجه إليه بالسؤال : « هل لك أن تقول لى أيها الكونت العزيز أأنت تشرفنى بهذا الحديث بناء على تعليمات من حكومتك ؟ » فاعترف تاتنباخ بالنفى ، فاستوى له المركيز وأنهى حديثه الطويل بقوله : « إنى فى سن أبيك يا عزيزى الكونت ، ولذلك فانى أسمح لنفسى بملاحظة أن الفكرة التى تتصور بها المفاوضات الدبلوماسية هى أن تمسك بعنق خصمك وأن تطرحه أرضاً وأن تدوسه بالأقدام لتقول له بعد ذلك : هيّا بنا إلى الاتفاق ! وأن طريقة كهذه لو عممت فى بلادكم لجلبت عليكم الشرور » .

وكان سفورزا حاضراً ذلك الحديث . وقد قال له المركيز بعد انصراف الكونت الألمانى : « إنه على حق ! فلنذهب الآن لنتسلى . إذ لو أرسلنا بما دار برقية لعرضنا الأمور إلى أن تؤخذ أخذ مأساة . »

ويرى سفورزا أن شخصية هذا المندوب الألمانى — وهى شخصية سمجة — كان لها أكبر الأثر فى تضامن الفرنسيين والانجليز ؛ إذ انتهى المندوب البريتانى الأول إلى تأييد المندوب الفرنسى الأول فى كل اتجاهاته مع ماكان بينهما من تفاوت فى الطبائع ؛ فقد كان سر أرثر نيكولسون قليل الكلام متحفظاً ، وكان أول الأمر

يحس امتعاضاً من ذلك المحامى الفرنسى ذى الحديث المتدفق المزدهر .

ويقرر سفورزا أن الموقف الألمانى قبل أن تعمل الظروف على عزله كان يلقى فى روع المجتمعين كلهم أن الحرب قريبة ، وأن ألمانيا هى التى ستنتهى إلى إعلانها . ولم تعمل الظروف على محو هذا الخوف إلا بفضل تفصيل من التفصيلات الإجرائية . فقد عرضت مسألة تأجيل المؤتمر لأن التقارير الخاصة بالبنك المراكشى لم تكن معدة ، والألمان لم يكونوا ليريدوا أن تتناول المناقشة مسألة البوليس قبل أن ينتهى بحث موضوع البنك . فاقترح المندوب البريتانى — وقد نالت منه الالحاحات الألمانية الطويلة — بما أنه ليس من اليسير درس مشروع البنك بسرعة ، أن تخصص جلسة اليوم التالى لدراسة نظام البوليس . فوافق المندوب الروسى فى الحال ، وأقر المندوب الفرنسى الاقتراح ، فتم بذلك — على حد قول سفورزا — تجنيد الاتفاق الثلاثى بعد أن ظل الخوف من ألمانيا حائلا طوال المؤتمر دون ذلك . فغضب المندوب الألمانى ووقف ملحا فى الانتهاء من درس مسألة البنك قبل العرض لمسألة البوليس . فأعلن الرئيس الأسبانى أنه سيلجأ لأخذ الأصوات ما دام أمامه اقتراحان متناقضان . ولم يكن له بصفته رئيساً إلا أن يفعل ما فعل . فأخذت الأصوات بترتيب أسماء الدول المؤتمرة باللغة الفرنسية . فأصر المندوب الألمانى على رأيه ، وانضم إليه بعد تردد مندوب النمسا ، وأعلن مندوب بلجيكا أنه منضم إلى رأى الكثرة إذا يتبين . وانضم المندوب الأمريكى إلى الرأى الانجليزى الفرنسى الروسى . وذكر المندوب الانجليزى أنه صاحب الاقتراح فأيده .

وجاء إذن دور المندوب الايتالى ، فعاود المندوب الألمانى الأمل . ذلك بأنه إذا أيد الاقتراح الألمانى فان مندوبى هولندا وسويسرا سيتبعانه ، وإذن فان ستة أصوات سينالها الاقتراح البريتانى وستة أصوات ستكون ضده ، فلا يعمل بصوت بلجيكا إذ لا تكون هناك كثرة ينتمى إليها . لكن مندوب إيتاليا « اقترح تخصيص جلسة لتبادل الرأى حول مسألة البوليس » فكان بهذا نجاح الاقتراح « الاتفاقى » إذ تبع سائر المندوبين هذا الاتجاه وظهرت ألمانيا فى عزلة لم يؤيدها فى الرأى إلا النمسا ومراكش .

وفقد مؤتمر الجزيرة منذ تلك اللحظة أهميته السياسية ؛ إذ انكشف ستر ألمانيا التى كان يخشاها المؤتمرون جميعاً ، وتكتلت الأصوات ضدها إلى أن انتهى المؤتمر .

لكن ألمانيا « المنعزلة » قد قررت من تلك اللحظة الاستعداد للحرب حتى تنال بها ما لم تستطع أن تناله عن طريق الدبلوماسية ، فكان تدبيرها للحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

وبعد فتلك صفحة دبلوماسية نرجو أن يفيد الدبلوماسيون المصريون والعرب مما عمرت به من ملابسات إذا ما كتب لهم أن يعالجوا أمور بلادهم فى الحظائر الدولية .

محمود عزمى